آفاق وسياقات
تموز ٢٠٢٦ / عدد خاص «الشبكة اللاهوتيّة المتوسّطيّة» - ص. ٣١-٤٩

«من أجل لاهوتٍ من حوض البحر الأبيض المتوسّط» ملاحظاتٌ في المنهج

الشبكة اللاهوتيّة المتوسّطيّة

تعريب النصّ من اللغة الإيطاليّة: الدكتورة لينا إسكندر حوّاط

تمهيد

يمثّل **بيانٌ من أجل لاهوتٍ في حوض البحر الأبيض المتوسّط*** فرصةً لترجمة نداءٍ أدركنا، بوصفنا لاهوتيّين ولاهوتيّات، ضرورتَه المُلحَّة، ألا وهو تطوير لاهوتٍ سياقيٍّ انطلاقًا من هذا «المكان» بالذات. وقد فتح هذا النصّ سبلًا غير مُتوقَّعة للتشارك، مبنيّةً على إشراقاتٍ وقناعاتٍ وخياراتٍ تتعلّق بتحدّيات المستقبل. ونرى أنّه بات لزامًا إرفاقُ «البيان» بنصٍّ منهجيٍّ يبيّن السمات التي تميّز ممارسةً لاهوتيّةً تنبثق من «المتوسّط». لا يقتصر اللاهوت «من المتوسّط»** على المتوسّط وحده؛ فالحديث عن لاهوتٍ سياقيٍّ لا يعني التطلّعَ إلى نوعٍ من الخصوصيّة اللاهوتيّة. إنّ فهم الإيمان ينشأ دومًا في سياقٍ بعينه، غير أنّه، في تشكُّلِه وتفاعله مع الواقع الإنسانيّ الملموس، يأخذ أفقًا دلاليًّا يتجاوز خصوصيّة ذلك السياق. ومن البديهيّ أنّ مقاربتنا لا تقوم على تفكيرٍ أحاديٍّ في المنهج، إذ ندرك تمامًا إمكانيّة تعدُّد الرؤى والخبرات. ولا نريد هنا سوى استحضار بعض المعايير التي تبيّنت لنا أهمّيّتها من خلال تقابُل الخبرات اللاهوتيّة المُنبثِقة من ضفاف المتوسّط المتعدّدة، في سبيل بناء لاهوتٍ **من** المتوسّط. وعلى غرار **البيان**، تمثّل هذه **الملاحظات** الأوّليّة بدورها نصًّا مفتوحًا على النقاش، وقابلًا لمزيدٍ من التدقيق والتطوير.

وقد جاءت الصفحات التالية ثمرة عملٍ مستفيضٍ من التبادل والنقاش والتعمّق، أفاد من إسهامات الخبراء، وكان، قبل كلّ شيء، فرصةً لتفاعلٍ خصيب في رحاب «الشبكة اللاهوتيّة المتوسّطيّة» (Rete Teologica Mediterranea – RTMed). وعقب صيف عام ٢٠٢٤، تأسّس فريق بحثٍ حول المنهج، وقد التقى مرارًا في ندوات متخصّصة، وصولًا إلى المؤتمر الذي عُقِد في مالطا الصيف الماضي***. وقد جُمِعت ثمار هذا العمل المُشترَك في نصٍّ تعاون الجميع على مراجعته وإعادة صوغه مرارًا، سعيًا إلى التوفيق بين التوجُّهات المُتنوِّعة بروحٍ من الانفتاح المُتبادَل. لذلك، لا يحمل النصّ توقيعَ مُؤلِّفٍ بعينه أو أكثر، بل يحمل بصمةَ الحوارات المنسوجة والتبادلات الحيّة، بل والمُحتدِمة أيضًا، التي عاشها المُشارِكون على مدى هذه الأشهر، وأثرَ الإشراقات التي نضجت والرؤى التي تشابكت في خضمّ النقاشات. لقد تبلور هذا النصّ في مساحة «البين» (*Tra*)، وفي ذلك تكمن قوّته. فالمنهج الذي نتحدّث عنه هو ذاته المنهج الذي وُلِدَت منه هذه الصفحات.

---

* "Manifesto per una Teologia dal Mediterraneo". تعريب النصّ من اللغة الإيطاليّة: الدكتورة لينا إسكندر حوّاط. مركز الأبحاث في العلوم الدينيّة – كلّيّة العلوم الدينيّة – جامعة القدّيس يوسف في بيروت.

** اخترنا ترجمة العبارة الإيطاليّة *dal Mediterraneo* بـ"من المتوسّط" بدلًا من "المتوسّطيّ/ة". إذ يُبرز حرف الجرّ "من" البُعدَ المنهجيَّ للانطلاق من مكانٍ بعينه بوصفه نقطةَ إنتاجٍ لاهوتيٍّ، لا مجرّد وصفٍ جغرافيٍّ أو هويّاتيٍّ ساكن. فاللاهوت "من المتوسّط" يُحيل إلى ديناميكيّةِ الانبثاق من السياق، جاعلًا من المكان والتجربة المعيشيّة مصدرًا إبستيمولوجيًّا للتفكير اللاهوتيّ، وهو ما يُؤطّر منهجَ هذا البيان بأكمله.

*** في ١٣–١٥ حزيران ٢٠٢٥.

وقبل الدخول في صلب المسألة المطروحة، قد يكون من المفيد أن نبيّن، مُباشرةً وبإيجازٍ، ما نعنيه بكلمة «المنهج».

وُلِدت الكلمة اليونانيّة "*methodos*" في رحاب التصوّف الشرقيّ، وهي ذات جذر هندو-أوروبّي "*sad*" (الجلوس على الأرض)، ومنه اشتُقَّ "*sādhana*" الذي يعني: ١) في صيغة المُحايِد، «الوسيلة» التي يُتوصَّل بها إلى الهدف؛ ٢) وبصيغة المُؤنَّث، «انضباطٌ روحيٌّ» يُمارَس بغية تحقيق الانسجام بين الذات والكلّ.

لقد جذب هذا التصوّر الشرقيّ لـ«الطريق» (**التاو**) كثيرًا من الفلاسفة، فأدركوا أنّ المنهج ليس مُجرَّد «وسيلةٍ» منفصلةٍ عن الحياة والحقيقة، بل هو جزءٌ لا يتجزّأ منهما. فالمنهج "*meth-odos*" لا يقتصر على كونه «طريقًا» يفضي إلى الحقيقة، إنّه طريقٌ لا تتحقّق غايته إلّا بالانغماس «صوفيًّا» في الحياة والحقيقة.

وعلى مرّ القرون، تراخى هذا الترابط بين «الطريق والحقّ والحياة» في الفكر الغربيّ (ولو جزئيًّا)، نتيجة النزعة العقلانيّة المُفرطة التي طغت على بعض تيّارات اللاهوت المسيحيّ. ففي العالم اللاتينيّ، سعى الإيمان المسيحيّ، بطبيعته، إلى فهمٍ أعمق لمضامينه (*fides quaerens intellectum*)، إلّا أنّ الزخم الذي أحدثته نشأة الجامعات، مقترنًا بتأثير العودة إلى نظريّة المعرفة الأرسطيّة (والتي أسهمت فيها الوساطة العربيّة بدورها)، هما اللذان أدَّيا فعليًّا إلى ترسيخ طريقةٍ «علميّة» في صناعة اللاهوت؛ طريقة تُخضِع الكتاب المقدّس لبحثٍ عقلانيّ قائمٍ على منهجٍ حجاجيّ. غير أنّ ذلك لم يَحُل دون ظهور طرائق مختلفةٍ في «صناعة اللاهوت»؛ فقد استمرّت هذه الطرائق داخل الفكر المدرسيّ (السكولاستيّ) عينه – إذ لم يُسلّم جميع اللاهوتيّين بحتميّة الصياغة «العلميّة» للمعرفة اللاهوتيّة وفق النموذج الأرسطيّ – وكذلك خارجه، كما يشهد على ذلك التقليد الرهبانيّ بطابعه «الحكميّ». وفي الواقع، إنّ ما يفصل بين هذه «اللاهوتات» المُتنوِّعة والمُتباينة، هو المساحة المتروكة لمتطلّباتٍ أو ملكاتٍ أخرى (مثالٌ على ذلك الملكات العمليّة-الوجدانيّة)، إلى جانب مطلب المعقوليّة.

بيد أنّه لا ريب في أنّ الصيغة المدرسيّة للّاهوت، مُقترِنةً باستعادة التراث الفلسفيّ اليونانيّ-الهلّنستيّ إبّان عصر الحركة الإنسيّة، أسّسا لتصوّر «المنهج» بوصفه «طريقًا» يتيح اجتياز «حقلٍ معرفيّ» بعينه، لبلوغ الغاية المنشودة بسهولة، ألا وهي الحقيقة حول موضوع المعرفة.

غير أنّ هذا التعريف يكشف عن قصوره وحدوده حين يُطبَّق على مجالاتٍ تتوقّف عليها علاقاتٌ تمسّ الشخص الإنسانيّ في الصميم.

١. البحر الأبيض المتوسّط بوصفه «مكانًا لاهوتيًّا»

١ . ١ التعدُّديّة والسياقيّة والتعقيد

نحن على قناعة، مع البابا فرنسيس، بأنّ «التفكُّر اللاهوتيّ مدعوٌّ إلى تحويلٍ في المسار، وتغييرٍ في النموذج الباراديغميّ، وإلى «ثورة ثقافيّة شجاعة»[١]، تلزمه أوّل ما تلزمه، أن يكون **لاهوتًا أساسيًّا سياقيًّا**[٢]. إنّ لاهوتًا ينبع من حوض البحر المتوسّط لَمدعوٌّ إلى قراءة الخبرة المتأصّلة في هذا الفضاء قراءةً تستوعب كلّ عمقها وكثافتها. لذا، ينبغي للمنهج الذي يقتضيه لاهوتٌ من المتوسّط أن يكون منهجًا «يطوّر فكرًا ملتصقًا بالواقع، الذي هو «بيت» للإنسان، وليس فقط للوقائع التقنيّة، والذي يوحّد الأجيال ويربط بين الذاكرة والمستقبل، ويعزّز بصورة مُبتكرة المسار المسكونيّ بين المسيحيّين، والحوار بين المؤمنين من مختلف الديانات»[٣].

إنّ البحر المتوسّط (بحسب تعريفه الحرفيّ: **بحرٌ «بين» أراضٍ مأهولة**) يدعونا إلى الاعتراف به «مكانًا لاهوتيًّا»، وذلك لكونه، تحديدًا، فضاء «البين»: فضاءً واقعيًّا للقاءٍ يحيل إلى الله، إلى لقاءٍ بين البشر ومع الله؛ ومن هذا الفضاء ننفذ إلى فهمٍ أعمق لإنجيل يسوع المسيح.

ويتجلّى البحر الأبيض المتوسّط بوصفه واقعًا معقّدًا ومتشابكًا، يتداخل فيه تاريخٌ طويلٌ من العلاقات الخصبة بين الثقافات والأديان مع اختباراتٍ من الصراع والعنف؛ وهو فضاء حياةٍ يكتسب كثافةً دلاليّةً خاصّة، كما شدّد على ذلك أيضًا سينودس الأساقفة الأخير[٤]. ففي هذا الإطار الجغرافيّ المحدود نسبيًّا، نجد تعدُّديّةً دينيّةً غنيّةً، تشمل المسيحيّة، شأنها شأن اليهوديّة والإسلام (من دون إغفال جماعاتٍ أخرى لها أهمّيّتها). ويمثّل المتوسّط أيضًا نظامًا بيئيًّا يزخر

(١) البابا فرنسيس، **رسالة عامّة**، «كن مسبّحًا»، ١١٤.

(٢) راجع: البابا فرنسيس، «لتعزيز اللاهوت» (٢٠٢٣)، ٤.

(٣) خطاب البابا فرنسيس في الجلسة الختاميّة لـ«لقاءات البحر الأبيض المتوسّط»، قصر «المنارة»، مرسيليا ٢٣ أيلول ٢٠٢٣.

(٤) «إنّ أفقًا بالغ الدلالة يحمل التجدُّد والرجاء، يمكن أن تتحقّق فيه أشكالٌ من تبادلٍ العطايا، والسعي نحو الخير العامّ، والالتزام المُنسَّق تجاه قضايا اجتماعيّة ذات أهمّيّة عالميّة، هو ذلك الأفق الذي يرتسم، على سبيل المثال، في مناطق جغرافيّة واسعة تتجاوز الحدود الوطنيّة ومتعدّدة الثقافات، كالأمازون وحوض نهر الكونغو والبحر الأبيض المتوسّط». («من أجل كنيسة سينودسيّة: شركة ومشاركة ورسالة». **الوثيقة الختاميّة**، الجمعيّة العموميّة العاديّة السادسة عشرة لسينودس الأساقفة، ٢-٢٧ تشرين الأوّل ٢٠٢٤، فقرة ١٢٠).

بثراءٍ خاصٍّ به، بيد أنّه يرزح تحت وطأة تهديدٍ بالغٍ جرّاء التغيُّر المناخيّ وأشكالٍ أخرى من التدهور البيئيّ. وأمام خبرة من يعيشون هذا الواقع، نشعر – بوصفنا لاهوتيّين ولاهوتيّات – بأنّنا مدعوّون إلى مواجهته، وفهمه بعمق، نظرًا إلى ما يحمله من قدرةٍ على البوح بكلّ ما يخصّ معنى الإنسانيّة وإمكانيّة ازدهارها. الأمر إذًا هو تعلّم قراءة «علامات الأزمنة»، استجابةً للدعوة الصادرة عن المجمع الفاتيكانيّ الثاني، مع التطلُّع إلى السياق المتوسّطيّ تحديدًا.

وعليه، يتلازم السياق والتعقيد معًا في المتوسّط. فإذا كان مصطلح «السياق» يحيل إلى الزخرف الناتج من تشابك السَدى واللحمة في النسيج، فإنّ «التعقيد» – المُشتَقّ من اللاتينيّة (*plectĕre*) أي يضفر أو ينسج، و(*cum*) أي معًا – يغوص إلى عمقٍ أكبر، حيث تغدو التشبيكات أشدّ كثافةً، ويبدو كلّ شيءٍ مترابطًا ترابطًا لا يقبل التفكيك.

وإذا كانت الأزمة، على حدّ تعبير الدستور الرسوليّ **فرح الحقيقة**، ليست في الواقع وتحوّلاته، بل في افتقارنا إلى أدواتٍ ومقولاتٍ لفهمه؛ فإنّ الحاجة تشتدّ إلى منهجٍ يعين على خوض غمار هذا التعقيد. وهو مسارٌ يقتضي منّا القبول باللايقين، والمجازفة بتفكيك بنًى طالما عهدناها راسخة. وقد يبدو في هذا التفكيك خسارة، لكنّه، في الوقت عينه، قد يمهّد الطريق لتجدّدٍ ونموّ. بل أكثر من ذلك، أفلا تتّسم بداية الحياة ذاتها بـ«تدفُّق المياه»؟

ولمواجهة هذا التعقيد، تغدو مُقارَبة العلم الحديث – على ضرورتها – غير كافية؛ ونعني بها المُقارَبة التحليليّة والكمّيّة التي تسمح بتحديد الإشكاليّات بدقّةٍ بالغة. ومن هنا، لا غنًى في كلّ ميدانٍ من ميادين المعرفة، عن تضافرٍ «سيمفونيٍّ» للجهود، يكفل بلورة فهمٍ شاملٍ، وكلّيٍّ، ونوعيٍّ للعالم. إذ إنّ «المعرفة المُجزَّأة والمعزولة بإمكانها أن تصير شكلًا من أشكال الجهل، إذا أبت الاندماج في نظرةٍ أوسع للواقع»[٥]. وهذا يقتضي منهجًا لاهوتيًّا رحبًا، يتّسم بقابليّة التأثُّر والتحوُّل من خلال اللقاء؛ أي سبيلًا لاستضافة الآخر يتحوّل فيه التفكير إلى فعل تواصلٍ وعلاقة (في–العلاقة). إنّه منهجٌ يجمع ويَهَب المعنى من دون أن يؤطّره في تعريفاتٍ مُغلَقة؛ بل يترك مساحاتٍ مفتوحةً لإبداع الآخرين؛ ولذا فهو منهجٌ «شعريٌّ» (إذ إنّ الـ *poesis* تشير إلى الصنع، والخلق، والفعل).

(٥) البابا فرنسيس، **رسالة عامّة**، «كن مسبّحًا»، ١٣٨.

١ . ٢ منهج البينيّة التكوينيّة التحويليّة (*formativo-s-tra*)

ينتهج لاهوت من المتوسّط مسارًا للتحوّل ينطلق من «البينيّة–التكوينيّة» (مساحات التلاقي المُتبادَل)، بغية درء أيّ مُنزلَقاتٍ استبداديّةٍ أو شموليّةٍ قد تجرّ التفكير اللاهوتيّ نحو الانغلاق والأحاديّة. ومن هنا، تبرز الحاجة المُلِحّة إلى استعادة الطابع الرمزيّ، والمُتأنّي، واللطيف، والسرديّ الذي يميّز الفكر المتوسّطيّ الأصيل.

ينسج **التفكير الرمزيّ** دلالاته عبر الصور، والاستعارات، والتشبيهات؛ وهو لا يقتصر على الدلالة الحرفيّة المباشرة، **بل يحيل إلى ما وراءها، مُتجاوِزًا حدود المعنى المُعجميّ ليفتح آفاقًا رحبةً للتأويل**. إنّه تفكيرٌ **مُنفتِحٌ، وخلّاق، ومُتشعِّب المسارات**، يرفض الانغلاق الأحاديّ، ويستوعب الغموض، والأصداء الدلاليّة، وتعدُّديّة المعاني. إنّه فكرٌ قادرٌ **على التوليف** بين العقلانيّ والمحسوس، والجسديّ والروحيّ، والواقعيّ والمُتخيَّل. وهو يقرّ بأنّ المُخيِّلة مَلَكَةٌ معرفيّةٌ جوهريّة، تمتلك القدرة على توليد المعنى، ومدّ الجسور بين حقول التجربة المُتباينة، إذ بمقدورها اقتناص الروابط العميقة حيث لا يرى التحليل الاستدلاليّ سوى أجزاء مُتناثِرة. وفي هذا المنظور، تغدو **الاستعارة أداةً معرفيّةً** (إبستيمولوجيّةً) بحقّ. فكما بَيَّنَ بول ريكور (Paul Ricoeur)، ليست الاستعارة مجرّد صورةٍ بلاغيّةٍ أو «زينةٍ لفظيّةٍ» كما كان يراها أرسطو؛ بل هي **أداةٌ معرفيّةٌ**، قادرةٌ على إبداع رؤًى جديدةٍ للعالم، وسدّ «الفجوات الدلاليّة» في لغتنا، ممّا يسهم في إعادة هيكلةِ مجالِ ما هو قابلٌ للتفكير[٦]. إنّها تتيح لنا رؤية المُتشابِه في المُتباين، وربط ما يبدو مُنفصِلًا، وتوليد **البصيرة**[٧] (*Insight*) حيث يقف المفهوم المُجرَّد عاجزًا.

إنّ عالم–الحياة المُتوسِّطيّ هو نسيجٌ من خبرات عيشٍ، لا سبيل إلى فهمها إلّا بسردها أوّلًا. فالسرد **لا يفكّك** الواقع إلى بيانات، بل يعيد تركيبه في حكايات؛ **ولا يعزل الأحداث** عن بعضها، بل ينسج بينها الروابط؛ وهو لا يكتفي **بالقياس**، بل يغوص في التأويل. والسرديّة هي أيضًا **ذاكرةٌ جماعيّةٌ**: أسطورةٌ، وتاريخٌ، وأنسابٌ. فمن خلال السرد تتكوّن الجماعة وتتوارث، وتتحوّل. وفي السرديّة تحديدًا، تتبلور القيم والانتماءات والروابط. والتفكير السرديّ يعني **السُكنى في الزمن**، والإقرار بتاريخيّة التجربة الإنسانيّة، وتموضع

(٦) راجع:
P. Ricoeur, *La métaphore vive*, éditions du Seuil, Paris 1975.

(٧) راجع:
B.J.F. Lonergan, *Insight: A Study of Human Understanding*, Philosophical Library, New York 1970, 319 ss.

الذات ضمن أفقٍ من المعنى يسبقها ويتجاوز حدودها. كذلك فإنّ السرد يعني **التنبُّه للأشياء**. وهذا التنبُّه هو عتبة الدهشة؛ إنّه فعلٌ معرفيٌّ ووجدانيٌّ في آنٍ واحدٍ: إذ يتنبّه المرء، فيندهش، ثمّ يروي للآخرين، ومن هنا تبدأ المعرفة، والتحوّل، وتحقيق الذات. وبهذا المعنى نحن بإزاء منهجٍ في خدمة إنسانيّةٍ مُتجدِّدةٍ ومُجدِّدةٍ.

إنّ الانطلاق من التفكير السرديّ يعني، في اللاهوت، الاعتراف بالقيمة التربويّة للرواية، وللكتابة التأمُّليّة، وللسيرة الذاتيّة، وللتصوير الدراميّ، ولإنشاء القصص. إنّها استعادةٌ لزمن المعنى المديد الذي يتطلّبه تشكّل المعنى، **في مواجهة سرعة الشبكة (الرقميّة) العشوائيّة**؛ فضلًا عن إعادة الاعتبار لمحوريّة تشكيل الهويّة السرديّة بوصفها مسارًا أخلاقيًّا[٨]. وفي الواقع، لم يبلغنا «تاريخ الخلاص» نفسه إلّا عبر السرد الكتابيّ، من طريق قصصٍ تناقلَتْها الألسُن ثمّ دوّنت؛ فالوحي الإلهيّ هو ديناميّةٌ فاعلةٌ في عمق التاريخ البشريّ حتّى يجمع كلّ شيءٍ في المسيح. ومن هنا فإنّ لاهوتًا **من** المتوسّط هو لاهوتٌ سياقيّ، ينطلق من الخبرة، ومن التجارب المَعيشة، وما تنطوي عليه من حكايات. إنّه لاهوتٌ يبدأ **من** الإصغاء، بل هو، بهذا المعنى، لاهوتٌ **للإصغاء**. وليس في هذا إعلاءٌ لشأن الخبرة على حساب التأطير المفاهيميّ، بل هو وعيٌ بعدم وجود وقائع مُجرَّدة في ذاتها، فنحن دائمًا أمام قراءات نقارب بها التجربة، ومعانٍ نضفيها عليها، وروايات ننسجها حولها. وفي الوقت نفسه، لا بدّ من الإقرار بأنّه، في أساس كلّ قراءةٍ للمَعيش، وكلّ إضفاءٍ للمعنى، ثمّة وقائع وأحداثٌ وسياقاتٌ – بل وصراعاتٌ أحيانًا – يفوق تعقيدها قدرة السرد وحده على الإحاطة بها؛ ولذلك لا بدّ للتفكير اللاهوتيّ من أن يعيرَها عنايةً دقيقة، وأن يتزوّد بالأدوات الكفيلة بتحليلها، حتّى يدرك الواقع من زوايا مُتعدِّدة. وهذه هي المنهجيّة عينها التي طبّقها البابا فرنسيس على نطاقٍ واسعٍ في رسالته العامّة المُفعَمة بالتعاطف **كن مسبّحًا** حين أصغى إلى صرخة الفقراء وصرخة الأرض[٩]. ففي هذا النصّ، أُوكِلت مهمّة استيعاب الأبعاد المختلفة للأزمة الاجتماعيّة والبيئيّة، بادئ ذي بدءٍ، إلى لغات العلوم البيئيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة. ولا يُعَدّ اللجوء إلى العلوم هذا خروجًا عن صميم التفكُّر اللاهوتيّ، بل هو، على العكس من ذلك، ما يميّز لاهوت هذه الرسالة بوصفه فعلًا متكاملًا. وفضلًا عن ذلك، فإنّ هذا النمط من التفكُّر يميّز

(٨) راجع:
P. Ricoeur, *Temps et récit, Tome III. Le temps raconté*, éditions du Seuil, Paris 1985, 272.

(٩) راجع: «كن مسبّحًا»، ٤٩.

٣٧

أنواعًا عديدة من اللاهوت السياقيّ (ويكفي أن نستحضر هنا لاهوت التحرير في أميركا اللاتينيّة)، كما أنّه حاضرٌ غالبًا في الأخلاقيّات اللاهوتيّة (وليس في مباحث الأخلاقيّات التطبيقيّة فقط)، وكذلك في اللاهوت العمليّ.

إنّ دراسة المتوسّط تقتضي قراءةً عابرةً للتخصُّصات (*transdisciplinare*)، عملًا بتوجيهات الدستور الرسوليّ **فرح الحقيقة**. وبذلك، تتكامل الخفّة الإيحائيّة للاستعارة والرمز، مع دقّة لغاتٍ تعير اهتمامًا أكبر للأبعاد الكمِّيَّة والوقائع المباشرة.

وفي ظلّ رحابة هذه الرؤية، تتجلّى خبرة الحياة المحفوظة في سرديّة الإيمان على حقيقتها: فهي ليست مجرّد واقعٍ بيولوجيّ، بل هي، وقبل كلّ شيء، واقعٌ تاريخيٌّ، ورمزيٌّ، وتوّاقٌ، وإبداعيّ؛ لتغدو بذلك فضاءَ الإمكانات المُنفتِح على المستقبل.

١ . ٣ منح الذات وقتها (التأنّي)

تنطلق صناعة اللاهوت في الفضاء المتوسّطيّ من الإصغاء إلى التجارب الحياتيّة، بغية استخلاص معانيها. غير أنّ الإصغاء يقتضي وقتًا. فالكلمات تودِع في الروايات ثقل حكاياتٍ مُعقَّدةٍ – وغالبًا جريحة – ثمّ تنتظر بصبرٍ خياراتٍ ومبادراتٍ ملموسةً، تجسّد القرب الرحيم والعدالة التصالحيّة. إنّ التفكير المُتأنّي يعني الإقامة في الزمن، والمكوث في رحاب الأسئلة، والتأمُّل من دون استعجالٍ للحلول. إنّه تفكيرٌ ينمّي ملكة التريُّث، والحسّ النقديّ، والقدرة على التفكير العميق. ومن هنا تنبع الأهمّيّة الجوهريّة لهذا النهج؛ إذ إنّه الكفيل بتجاوز الإدراك الانفعاليّ، وسطحيّة العمل المُتزامِن (*multitasking*)، وهما سِمَتان تطغيان بخاصّةٍ على العالم الرقميّ. فالتأنّي يقتضي بيئاتٍ مُواتِية، وأوقاتًا مُمتَدّة، ومساحاتٍ حواريّةً وتفكُّريَّة؛ وهو شرطٌ لا غنًى عنه للتعمُّق، وتنمية التفكير النقديّ، فضلًا عن إدراك الفهم المُركَّب، وتنشيط الحدس، واستقبال غير المألوف، والتحلّي بالبصيرة النبويّة.

يفسّر التأنّي ظاهرة التعقيد، لأنّه قادرٌ على استيعاب السرديّة غير المسبوقة لكلّ ما هو مُفاجئٌ ومُتغيِّرٌ؛ فهو يمثّل البديل الفكريّ الرصين للسرديّات السطحيّة المُتلاحِقة، التي تخضع لتقلّبات السياق. وعلى غرار عمليّة تهوية النبيذ، يمنح التأنّي الفكرة وقتًا لتنضج وتكتسب عمقًا ومتانة. فهولا يتيح بلورة الفكر من خلال ممارسة التفكير نفسه فحسب؛ بل يسمح أيضًا بمعالجة التعقيد الناتج من تقاطع مختلف الثقافات والأديان والمعتقدات، وعن ذلك التجاور الصعب بين القواسم الإنسانيّة المشتركة والهويّات الصغيرة والأصيلة. وباختصار، إنّ التأنّي هو المساحة التي تسمح للفكر بأن يرى النور.

والتأنّي حليفٌ للأخلاق أيضًا؛ إذ يدفع التفكير نحو الفعل، وينتقل بالفكرة إلى حيّز العهد والتضامن والتقارب، مُعزِّزًا إبرام مواثيق تقوم على القرب والعدالة. إنّه مسار الأخوّة في أبهى تجلّياتها؛ فالتأنّي، شأنه شأن المحبّة، يتّسم بالصبر. وعلى النقيض من ذلك، فإنّ المجتمعات القائمة على هَوَس الأداء والسرعة تفرز، في الغالب، الإنهاك والعزلة وفقدان المعنى. بناءً عليه، يمثّل التأنّي في الفكر المتوسّطيّ دعوةً إلى الحضور الواعي، وإلى بناء علاقاتٍ ذات مغزًى، وإلى رعاية التجربة الحياتيّة. لا ينطوي هذا التّأنّي على حنينٍ إلى الماضي، إنّما يمثّل مبادرةً فاعلةً نحو نموذجٍ حضاريٍّ جديد.

يتّسم الموقف المتوسّطيّ بالتأنّي، لكنّه ليس خاملًا أو عديم الفاعليّة؛ فهو يغوص في الأعماق، وقادرٌ على منح العناية والاهتمام. وفي حقبةٍ يهيمن عليها منطق التسارع[١٠]، حيث تُقاس القيمة غالبًا بمعايير السرعة والإنتاجيّة والفوريّة، يتجلّى الفكر المتأنّي بوصفه شكلًا من أشكال المقاومة الثقافيّة والتربويّة. إنّه سبيلٌ يعيد إلى الزمن المديد مركزيّته، وإلى المُعالجَة المُتأنِّية أهمّيّتها. فالتأنّي هو مقاربة التاريخ والحكايات، من خلال تمييز علامات الأزمنة.

٢. المعيار الحيّ للفصح

إنّ التجارب المعيشة في المتوسّط، على ما فيها من تعقيد، تشكّل واقعًا يستحقّ الإصغاء والقراءة المُتأنِّية والعميقة. أمّا المعيار التأويليّ لهذه القراءة اللاهوتيّة، فيَكمُن في «سرّ الفصح»، وفي فاعليّته التي تسري كالخميرة في قلب كلّ تاريخ.

يقتضي الإصغاء إلى العالم اقتداءً بالقائم من الموت، والتعبير عنه لاهوتيًّا، إعادة النظر في جملةٍ من المُؤشِّرات اللاهوتيّة والآليّات العمليّة. وينسحب هذا التعديل على طرائق استكشاف الواقع، وفهمه، وتأويله، والحديث عنه، وروايته؛ كما ينسحب على صناعة اللاهوت نفسها؛ فهي ليست مُجرَّد تنظيرٍ فرديٍّ معزولٍ، بل هي نشاطٌ مُشترَك، وحوارٌ دائمٌ مع العالم، وبين الأقران، وبين مختلف التخصّصات، وبين التجارب الشخصيّة، وبين الثقافات. ومن ثمّ، يستلزم ذلك صياغة معايير جديدة، وأسلوبٍ جديدٍ، ومساراتٍ مُتجدِّدةٍ في البحث والتكوين.

(١٠) راجع:

H. Rosa, *Beschleunigung und Entfremdung*: *Entwurf einer kritischen Theorie spätmoderner Zeitlichkeit*, Suhrkamp, Berlin 2013, 93-143; 17-18.

بصفته «الطريق والحقّ والحياة» (راجع يو ١٤ : ٦)، يمثّل القائم من الموت «المنهج» الأساس للّاهوت. فهذا الواقع، الذي تبنّاه وافتداه في التجسُّد، يقرأ وفق **قياس العلاقة** (*analogia relationis*)، وهو قياسٌ يحيل كلّ شيءٍ خلق «به» (راجع قول ١ : ١٦)، إلى الله الآب، في الروح القدس. ويتّبع طريق هذا القياس المنطق «الأسراريّ» للفصح، مُساعِدًا على «فهم كيف يسائل السرّ المُعلَن لمحبّة الله هذا الواقع التاريخيّ والمخلوق؛ ذلك الإله الذي يتجلّى في سيرة يسوع، مرارًا وتكرارًا ومن قلب كلّ تناقض، أعظم محبّةً وأشدّ قدرةً على استرداد ما أفسده الشرّ»[١١]. وتتيح **ديناميّة القياس** رصد ما في الواقع التاريخيّ من روابط وعلاماتٍ تحيل إلى الله، واجدةً معيارها الاستكشافيّ الحيّ في الربّ القائم من الموت. علاوةً على ذلك، تبرز الحاجة إلى إعادة التفكير في الأنطولوجيا (علم الوجود) من منظورٍ ثالوثيّ، بحيث تقارب الواقع لا بوصفه تجلّيًا لـ«الواحد» الكرويّ المُنغلِق عند بارمنيدس، بل بوصفه «الواحد الثالوثيّ» القائم على التمايز؛ إنّها أنطولوجيا قادرةٌ على إعطاء معنًى لمفهوم «البين» (*il tra*)، سواءٌ في العلاقات الّتي تنسج حبكة الواقع، أو في حيّز «البين» الكامن في كلّ لقاء، وذلك بمعزلٍ عن أيّ مثاليّةٍ أو نزعةٍ توفيقيّةٍ ساذجة.

المسيح هو **البين** الذي يتجلّى على المستويات كافّة؛ فهو حاضرٌ في صميم كلّ حوار، لا في موضعٍ ساكن، بل في النقطة الديناميكيّة حيث تجتاز **العتبات** وتنفتح القلوب (راجع متّى ١٨ : ٢٠). وهكذا يغدو السرّ روايةً تسرد على طول الطريق (راجع لوقا ٢٤ : ١٣–٣٥). إنّه يكشف عن الواقع بوصفه دعوةً، وبوصفه مسيِّرَ حيِّزِ الـ«بين» المُمتَدّ بين التجسّد والفصح إلى واقعٍ **جديد** (*novum*) يمكّننا من فهم العلاقة من حيث كونها أفقًا أخرويًّا متجاوزًا يتولّد من اللقاء وفي اللقاء، ليثمر استضافةً متبادلةً، واعترافًا متبادلًا، وتلاقحًا خصيبًا يظهر الوعد المعهود إلينا. وفي ضوء الوحي المسيحيّ، يكتسب مفهوم الـ«بين»، على نحوٍ مُفارِق، قيمةً أنطولوجيّة (كيانيّة)؛ إذ يعيدنا إلى الصلة الحيويّة بين الخالق والخلائق، وهي صلةٌ تفتدي الأفراد التاريخيّين وعلاقاتهم أيضًا، من دون أن تقتصر على البعدَين الجغرافيّ والتزامنيّ، ذلك أنّها تعاقبيّةٌ زمنيًّا، لكونها تعبّر عن «عبور» الأزمنة.

(١١) راجع:
Francesco, *La teologia dopo "Veritatis gaudium" nel contesto del Mediterraneo*, Napoli 21 giugno 2019.

٣. الـ«بين» سبيلًا إلى الفهم

إذًا، تكمن في الـ«بين» خصوصيّة الأسلوب المتوسّطيّ في صناعة اللاهوت؛ إذ إنّه المعيار الّذي يمنحنا إيّاه هذا البحر من خلال طبيعة كينونته. إنّه بحرٌ يتوسّط اليابسة، يفصل ويوحّد، قادرٌ على إظهار الحدود بوصفها ضرورةً لعدم فقدان الهويّات، وحيّزًا مُصمَّمًا للعبور من أجل إحياء هذه الهويّات ذاتها. فهو عبورٌ في حركة ذهابٍ وإيابٍ لا تحتمل استعلاءً أو منطق تسلُّطٍ، بل تقوم على التبادل المُشترَك للمواهب الّذي يُعَدّ مبدأً للحضارة ومعيارًا لأخوّةٍ مُمكِنةٍ.

وكما يؤكّد لوسيان فيفر (Lucien Febvre) – وهو ما سوف يستلهمه تلميذه فرنان بروديل (Fernand Braudel) في دراساته حول البحر الأبيض المتوسّط – فإنّ أيّ منهج يحترم تواريخ منطقةٍ معيّنةٍ يتطلّب نظرةً تقف «عند الحدود الفاصلة بين مختلف العلوم»، لأنّ هناك تحديدًا «تتمّ الاكتشافات الكبرى»[١٢]. بناءً على ذلك، لا يقتصر البحر المتوسّط على كونه منطقةً جغرافيّةً فحسب، بل هو حيّزٌ تأويليّ. وتجعل منه طبيعته الحدوديّة فضاءً حيًّا لفكرٍ لا ينغلق في نظمٍ، بل ينفتح على عتبة الآخر. ففي هذا المكان، يرفض المنهج أيّ انغلاقٍ مطلقٍ: إنّه بتعبير ماريا زامبرانو (M. Zambrano) **بداية حياةٍ جديدة** (*Incipit Vita nova*) تتجدّد كلّما ارتضى الفكر الانفتاح على الآخر (الإلهيّ والبشريّ) التماسًا **للاستنارة** (*claritas*)، ذلك النور الدافئ الذي ينبثق **بين** ذواتٍ تتوق إلى علاقةٍ أصيلة. وبالتالي، يغدو فعل التفكير انتقالًا، واجتيازًا، ولقاءً: إنّه جغرافيّة الانقطاع الخصيب والإصغاء إلى الآخر (الإلهيّ والبشريّ).

وبوصفه علامةً نموذجيّةً، يلزم المتوسّط اللاهوت أيضًا بلورة فكرٍ جديدٍ يقوم على ممارسةٍ مختلفةٍ في ما يخصّ العلاقة مع الغيريّة والتنوُّع الثقافيّ والدينيّ. إنّه فكرٌ وممارسةٌ يُحرِّران من قلق الشعور بالتهديد بفقدان الهويّة، كما من خطر العناق الخانق للسلطة، بأيّ شكلٍ من الأشكال. وبما أنّ فلسفة العيش المتوسّطيّ هي فكر الهامش، والوقفة، وعدم الاكتمال، فإنّها تحمل في طيّاتها أفقًا لنزعةٍ إنسانيّةٍ جديدة. ولأنّ المتوسّط هو مكانٌ «في الوسط»، فهو يجيد التساؤل حول العلاقة، ولذا، فإنّ إبستيمولوجيّته (نظريّته في المعرفة) هي حكمة الحدود الّتي تحفّز التواصل بين المختلفَين. فما من أسلوب حياةٍ أقرب إلى الكمال من سواه، ولا يمكن لأيّ تقليدٍ ثقافيٍّ أن يفرض نفسه على الآخرين. بالتالي، يجب «ترجمة التقاليد»، لا المساواة بينها أو وضعها في نظامٍ

(١٢) « Les grandes découvertes se font aux frontières mêmes des sciences »: L. Febvre, *Une Vue d'Ensemble. Histoire et psychologie* (1952), in *Combats pour l'histoire*, Dunod Éditeur, Malakoff 2021, 246 [originale : *Psychologie et histoire*, in *Encyclopédie française*, *Tome VIII* : *La vie mentale*, H. Wallon (ed.), Société de gestion de l'Encyclopédie française : Diff. Librairie Larousse, Paris 1938, 8.12-3].

تراتبيٍّ. كما يجب تعزيز العيش المشترك بينها بفضل الاختلافات لا على الرغم منها. وهذا يعني الانتقال من لاهوت الحوار إلى لاهوتٍ في حوارٍ قوامه العبور المستمرّ. ولا نقصد هنا الحوار بوصفه استقطابًا نحو الذات أو قياسًا انطلاقًا منها، بل الإقامة في المسافة واجتيازها كما يفعل البحر تمامًا، مستعيدين مسار إبحارنا في كلّ مرّةٍ، على الرغم من قذف الأمواج إيّانا.

بفضل الحوار بين الثقافات والأديان، يغدو من المُمكِن إذًا الاعتراف بقيمة الآخر، ومعه الاعتراف بتدخُّل الله في تاريخ الشعوب. إذ إنّ خير ترياقٍ للهويّات المُتحجِّرة وللعنف يكمن في لاهوتٍ يتقن سُكنى «ما بين» الثقافات، ويقدر على تعزيز ثقافة اللقاء. وهو لاهوتٌ يسهم في تجريد قلب الإنسان من كلّ سلاحٍ، ويدفع بالجماعات إلى الانخراط في مسيرة الحوار الشاقّة، لتتعلّم كيف تمارس وتعيش «ذاكرة توبةٍ» قادرةً على إطلاق عمليّة الشفاء. كما يقتضي هذا النهج تبنّي التعدُّديّة في الفضاء المشترك، لا الطائفيّة، بوصفه تربيةً على التنوّع، ممّا يحثّ اللاهوت على أن يتبلور كـ«لاهوتٍ من أجل السلام»، وفي صورةِ مدرسةٍ للتنشئة على ممارسات والمصالحة والعدالة.

إنّ اللاهوت الّذي يتقن الإقامة في الـ«بين» يشجّع على التفكير في الاختلاف الدينيّ من حيث هو فرادةٌ غير قابلةٍ للاختزال، بل وسيلةٌ تسمح للمرء بفهمٍ ذاتيٍّ لدينه الخاصّ. كما أنّه يسهم في استقبال ودعم الثروات الروحيّة للتقاليد الدينيّة المختلفة، بوصفها إسهامًا مشتركًا في الخير العامّ.

يتجلّى الـ«بين» المتوسّطيّ على وجه الخصوص بين عالم الشرق وعالم الغرب. إذ لا يوجد مكانٌ آخر بلغ فيه تداخلهما هذا العمق، أو شهد مثل هذا التوتّر الدائم، كما هي الحال في بلدان هذا البحر المتوسّط وتاريخها. ولا يقتصر هذا الأمر على العلاقة بين التقاليد الدينيّة والثقافات المختلفة، بل ينسحب أيضًا على التركيبة الداخليّة للدين المسيحيّ، بما تقدّمه الكنائس الشرقيّة من غنًى، وهو ثراءٌ متأصّلٌ في النسيج الكنسيّ والدينيّ لمنطقة البحر الأبيض المتوسّط، وثراءٌ يجب استيعابه واستعادته في طريقة صناعتنا اللاهوت أيضًا.

فمن خلال التموضُع في الـ«بين»، يستطيع اللاهوت «من المتوسّط» أن يلبّي دعوة البابا فرنسيس لبلورة «لاهوتٍ دفاعيٍّ مبتكرٍ» في خدمة البشارة[١٣]، وذلك بتبنّي منهج تفحُّص-

(١٣) البابا فرنسيس، **إرشاد رسوليّ**، "فرح الإنجيل"، ١٣٢؛ **دستور رسوليّ**، "فرح الحقيقة"، ٥؛ و:
La teologia dopo "Veritatis gaudium" nel contesto del Mediterraneo, Napoli 21 giugno 2019.

حكم–فعل، الّذي أشار إليه المجمع الفاتيكانيّ الثاني في قراءته لـ«علامات الأزمنة»[١٤]، وهو المنهج الّذي أعيد طرحه في الإرشاد الرسوليّ **فرح الإنجيل**[١٥]، وتمّ تفصيله تحديدًا في الخطوات الآتية: ١) التعرُّف؛ ٢) التفسير؛ ٣) الاختيار.

٣. ١ الاعتراف والاعتراف بالذات

حين تلامس كلمات الله تاريخ الأفراد وتاريخ شعبٍ مرتبطٍ بفضاءٍ جغرافيٍّ مُعيَّن، فإنّ «النور» المُنبثِق منها يصدر عن الروح القدس. وفي هذا السياق، تعرّف زامبرانو في كتابها *Chiari del bosco*، المنهج بأنّه مسارٌ يجري في شفق التجربة، حيث لا يهيمن نور العقل، بل يترك لنورٍ مُتواضِعٍ وعميقٍ أن يهديَه. فالاستنارة هنا ليست استحواذًا، بل هي تجلٍّ يتمّ **عبر** العلاقة. إنّه نورٌ يحدث **توبةً** (*meta-novia*) – أي تحوّلًا جذريًّا في التفكير والإرادة – وهذا التحوّل هو جوهر **المنهج** (*methodos*) في أصله اليونانيّ: بوصفه طريقًا يمضي بنا نحو الحقيقة.

فالمنهج، قبل أن يكون «فعلًا»، يستلزم تحوّلًا في «طريقة النظر» إلى الواقع: إلى الله، والعالم، وأنفسنا، والآخرين. إن الأمر يتعلّق، قبل كلّ شيء، باكتساب «نظرةٍ تأمُّليّة، أي نظرةٍ إيمانيّة تكتشف هذا الإله الساكن في منازلها، في شوارعها وباحاتها. حضور الله يرافق البحث الصادق الذي يقوم به أفرادٌ وجماعاتٌ كي يجدوا سندًا ومعنًى لحياتهم. الله يحيا بين سكّان المدينة الذين يعزّزون التضامن والأخوّة والرغبة في الخير والحقيقة والعدالة. ذلك الحضور يجب ألّا يُصنَع بل أن يُكتشَف، أن يُرفَع الستار عنه. الله لا يتخفّى على الذين يبحثون عنه بقلبٍ صادق، ولو كانوا يفعلون ذلك على غير هدًى، بطريقةٍ غير واضحة ومُسهَبة»[١٦]. بفضل هذه «النظرة التأمُّليّة» التي غدت مُمكِنةً بنور «الحدث الفصحيّ» الحاضر في التجربة الإنسانيّة[١٧]، يصبح بمقدورنا تمييز «علامات الأزمنة»؛ فهي أوّلًا **شواهد لحضورٍ** يتوارى خلف ملامح التجدُّد والتطلّع نحو نظامٍ أكثر عدلًا وإنسانيّة، وخلف بعض الخبرات الحياتيّة، الشخصيّة والجماعيّة، التي ننسبها إلى دفع الروح القدس. وثانيًا، **أصوات** يُفصِح الزمن من خلالها، وهي أصواتٌ لا بدّ من الإصغاء إليها وتمييزها

(١٤) راجع، المجمع الفاتيكانيّ الثانيّ، **دستور راعويّ**، "فرح ورجاء"، ٤ و١١؛ يوحنّا الثالث والعشرون، **رسالة عامة**، "أمّ ومعلّمة"، ٢١٧؛ **رسالة عامة**، "السلام على الأرض"، ٢١–٢٥؛ ٤٥–٤٦؛ ٦٧؛ ٧٥.

(١٥) "فرح الإنجيل"، ٥١.

(١٦) "فرح الإنجيل"، ٧١.

(١٧) راجع: "فرح ورجاء"، ٤٦.

لنفهم ما يريد الله أن يبلغنا إيّاه؛ وثالثًا، **نداءات** إلى تكوين نوًى نبويّةٍ في الإيمان، تحمل في طيّاتها تساؤلاتٍ كامنةً مليئةً بالتحدّي.

يعلّمنا البحر المتوسّط، بما يمتاز به من كثافةٍ خاصّةٍ، أنّ الواقع لا يظهر لنا قطّ مُبهَمًا أو خاليًا من المعنى. إنّ الخطوة الأولى المطلوبة من أيّ منهجٍ يريد الثبات في الحقيقة، من دون أن يدّعي إنتاجها من ذاته، هي الإقرار بما هو معطًى لنا، وإدراك ما ينطوي عليه من كثافةٍ في المعنى. فالسياقات التي نعيش فيها هي سياقات حياة، ونسيجٌ من علاقاتٍ تضفي معنًى على الأماكن والأحداث، وعلى طريقتنا في التعامل مع الأشياء والزمان. وفي خضمّ هذا التشابك بين المكان والزمان، يتراءى لنا الواقع بوصفه بنيةً تنبض بالمعاني والروابط القيميّة. ويقع على عاتقنا، كلاهوتيّين أيضًا، أن نقرّ أوّلًا بهذا النسيج كما يكشف هو نفسه عن ذاته. ينطبق هذا على الأماكن، وعلى شعوب المتوسّط وثقافاتهم، وعلى قصص الحياة، والتقاليد، والنزاعات. يفقد اللاهوت أمانته للإنجيل إذا ظلّ أسير قوالبه الثابتة أينما حلّ، مُتشبِّثًا بأجوبةٍ صيغت في بيئاتٍ أخرى، بمعزلٍ عن سرديّات سياقاتنا وما تطرحه من تساؤلات. إنّما عليه تقبّل واقع الحياة في بلدان المتوسّط، عبر الإقرار بجراحها والندوب التي خلّفها التاريخ، وكذلك بتطلّعاتها نحو المصالحة، وتوقها إلى الرجاء، ورغبتها في الأخوّة والخلاص.

إنّما في الإيمان الشعبيّ تنعقد، على نحوٍ خاصّ، حكاية الأمكنة وتاريخها، وما تكابده في مواجهة الحاضر. وفي التجربة الدينيّة لعامّة الناس، يمتزج الإيمان بالواقع المَعيش، حاملًا آثاره في لحظات الضياع والتماس العزاء. وهكذا أيضًا في التديُّن الشعبيّ في بلدان المتوسّط، إذ لا يصحّ اختزاله في مجموعةٍ من العبادات التقليديّة أو الهامشيّة، لأنّه تعبيرٌ عن إيمان شعب الله كما يُعاش داخل مناخٍ ثقافيّ خاصّ. تتغلغل التقوى الشعبيّة لبلدان المتوسّط في الثقافات من خلال عاداتها اليوميّة، وتعبر تاريخها، لتسهم في تشكيل هويّة الأمكنة، وفي نموّ إرثٍ فنّيٍّ لا يقدّر بثمن. وعلى الرغم من أنّها لا تخلو من شوائب قد تشوّه معناها، لا يمكن اختزالها في فلكلورٍ محضٍ أو ظاهرةٍ اجتماعيّةٍ بحتة. فهي، بالحريّ، حكمة عيشٍ نتبيّن فيها فعل النعمة الداخليّ، ومنها نتلمّس ما لها من قيمةٍ لاهوتيّة وقوّةٍ مبشّرة. إنّ التجربة الدينيّة، كما تتجلّى في تاريخ الشعوب وفي صميم حياة كلّ إنسان، هي أولى مساحات «البينيّة» التي يتعيّن على أيّ لاهوتٍ، يطمح للانطلاق «ممّا هو كائنٌ بالفعل» وفق مبدأ الإرشاد الرسوليّ **فرح الإنجيل**، رقم ٦٩، أن يعترف بها ويحتضنها. وهذه التجربة هي أيضًا العبور الأوّل الذي ينبغي صونه، في ظلّ نزوع البشر الأصيل نحو الله، وهو نزوعٌ يستعصي على كلّ اختزال. وخير دليلٍ على ذلك هو أنّ وعي المُطلَق لا يزال

حاضرًا في تجربة الناس العاديّين، وإن بصيغ غير مؤسّساتيّة، حتّى في البلدان التي طالتها العلمنة؛ وكذلك الظاهرة ذات الدلالة البالغة لأماكن العبادة المشتركة، في البلدان التي شهدت هجراتٍ قديمةً أو حديثة.

يدرك المتوسّط قيمة الاختلافات، حتّى في أشكال التعبير عن الإيمان؛ ومن جهةٍ أخرى، «لا ينصف منطق التجسُّد التفكير في مسيحيّةٍ أحاديّة الثقافة ورتيبة»[١٨]. ويعرف هذا المتوسّط أيضًا ذاك الظمأ إلى الله، الذي لا يعيشه إلّا البسطاء والفقراء. ولهذا السبب، فإنّ صياغة لاهوتٍ ينطلق من المتوسّط، تقتضي أن نقارب باحترامٍ الإيمان الشعبيّ والتجربة الدينيّة لعامّة الناس، فقراء الأمس واليوم، أولئك الذين ينضج بحثهم عن الله وإحساسهم به ويعاش، في أحيانٍ كثيرة، على هامش البنى الكنسيّة المعتادة.

٣ .٢ تأويل الوقائع المَعيشة: المَرويّة والمسكوت عنها

تثمر «النظرة الجديدة» المُستنيرة بروح المصلوب القائم من الموت، في الأفراد والجماعة، «منهجيّةً معرفيّةً للرحمة» تتيح لهم تفسير أحداث التاريخ الراهن، مُتلمِّسين فيها قرب الله الذي يحدو بها، في أفق تحقيقها الأخرويّ، نحو اكتمالها: «ليكون الله الكلّ في الكلّ» (١ كور ١٥: ٢٨). فبفضل تجسّد كلمة الله، ولا سيّما بفضل فصحه، «خصّبت» الخليقة بأسرها بعمل روح القائم من الموت، «الربّ المحيي»، الذي ينمو ويتطوّر في الأفراد (راجع غل ٢: ٢٠)، وفي الخليقة جمعاء التي «تئنّ وتتمخّض إلى اليوم» (روم ٨: ٢٢).

إنّ قراءتنا الواعية والواقعيّة لتحدّيات السياق الراهن لا تمنعنا من الإيمان بأنّ «الهاوية» التي يتصاعد منها «صراخ» شعوب المتوسّط – ذاك الصراخ الذي يكون أحيانًا مكتومًا ونميل إلى تجاهله – قد نزل إليها ذاك الذي يدعو الجميع إلى القيامة معه (راجع روم ٦: ٣-٤؛ ٨-١١). فالحقيقة هي «أنّ من يغلق عينيه أمام قريبه يعمي نفسه عن مُشاهَدة الله أيضًا»[١٩]. وإذا كنّا نبحث عن «عدسة مُكبِّرة» تمكّننا من تمييز علامات الأزمنة، فهذه العدسة هي الرحمة، بما هي عدالةٌ أيضًا؛ أي الرحمة بوصفها منهجيّة معرفة (*epistème*)، وبوصفها مسؤوليّة أيضًا. يتعلّق الأمر إذن بتجاوز أوضاع التفاوت والتفوّق في المواقع، كي نتمكّن من قبول حقيقة الآخر. لذلك، يدعى لاهوت المتوسّط إلى إعطاء الشفقة والرحمة أهمّيّةً مركزيّة بوصفهما معيارًا للفهم، ومواردًا اجتماعيًّا، ومحبّةً سياسيّة. فلا يمكن الشهادة لحقيقة القيامة إلّا انطلاقًا من الأجساد المصلوبة، التي ينبغي الاعتراف بها والوقوف عندها، للاعتناء بها.

(١٨) "فرح الإنجيل"، ١١٧.

(١٩) البابا بندكتوس السادس عشر، **رسالة عامة**، "الله محبّة"، ١٦.

وعليه، فإنّ الإشكاليّة الحاسمة للمنهج لا تكمن في «ما هو الواقع؟»، بل: **من أين** «ننظر، ونصغي، ونفسّر» هذا الواقع، وبناءً عليه نقرّر كيف «نعمل» في خضمّه. وإلى جانب سؤال «من أين؟»، يبرز سؤال «إلى أين؟»، أي الوجهة التي نتحرّك نحوها بحثًا عن حقيقة ذواتنا. فانطلاقًا من **المكان** الذي نقرّر أن نعيش فيه معًا، يتحدّد «كيف» ننظر إلى الواقع ونعيشه؛ «إذ لا يمكن التطرّق إليه بناءً على وجهة نظرٍ أحاديّةٍ أو وفقًا لنوعٍ واحدٍ من المصالح»[٢٠].

باختصار، من أجل تفسير علامات الأزمنة، لا بدّ من إحداث تفاعلٍ بين **المعيار الحيّ لفصح** يسوع **وحركة المماثلة** (الأنالوجيا) التي تعين العقل «المستنير بالإيمان» (*ratio fide illustrata*) على تبيّن «الرابط» (*nexus*) الذي يجمع في شركةٍ واحدة، لا بين الوحي الطبيعيّ والوحي فوق الطبيعيّ[٢١] فحسب، بل بين علاقات البشر في ما بينهم، وعلاقتهم بالله أيضًا[٢٢]. على هذا النحو، سيصبح من الأوضح كيفيّة «اكتشاف البصمة الثالوثيّة في الخليقة كلّها، والتي تجعل من الكون الذي نعيش فيه **نسيجًا من العلاقات، حيث من طبيعة كلّ كائنٍ حيّ أن يصبو إلى شيءٍ آخر**»[٢٣].

٣. ٣ الاختيار والفعل «ضمن شبكة»

انطلاقًا من هذا، يعني التفكير **من** المتوسّط التفكير مع الآخر ومن أجله: أي تجاوز التجريد للانخراط في «جسم» العالم، وفي صراعاته، وفقره، وعلى هوامشه. وهنا ينفتح المنهج على العمل السياسيّ أيضًا، بوصفه أسلوبًا لرعاية الوحدة وسط الاختلاف والتعدّديّة.

إنّ الانتباه إلى الآخر يعني تطوير شكلٍ من أشكال الاهتمام الأخلاقيّ تجاه من يقف أمامنا، والاعتراف به في غيريّته التي لا تختزل، وفي هشاشته وكرامته. إنّه بادرة انفتاحٍ لا سيطرة؛ وتقاربٍ لا هيمنة. يرتبط هذا الشكل من السياسة ارتباطًا عميقًا **بلطافة الفكر**، التي لا تُفهَم هنا على أنّها ضعف، بل بوصفها قوّةً كامنة في العلاقة، وقدرةً على إفساح المجال للآخر داخل أفق المعنى الخاصّ بنا. فاللطف هنا هو شكلٌ من أشكال أخلاقيّات العلاقة، التي تقتضي تعليق الحكم، والجهوزيّة للإصغاء، واحترام النقص المُلازِم للتجربة البشريّة.

---

(٢٠) "كن مسبّحًا"، ١١٠.

(٢١) راجع:

Concilio Vaticano I, *Dei Filius*, cap. IV: *De fide et ratione*

(٢٢) المجمع الفاتيكانيّ الثاني، **دستور عقائديّ**، «نور الأمم»، ١.

(٢٣) راجع: «فرح الحقيقة»، **تمهيد**، ٤–أ.

في هذا المعنى، تقترب فكرة «السياسة المتوسّطيّة» من مفهوم **الرعاية** كما صاغته جوان ترونتو، والذي يقدّم العمل السياسيّ بوصفه مسؤوليّةً يوميّةً تجاه احتياجات الآخرين[٢٤]. فالانتباه إلى الآخر يعني الاعتناء به، سواء في البعد الملموس للّقاء، أو في الحيّز الرمزيّ للاعتراف. إنّها سياسةٌ تقوم على **الاعتماد المُتبادَل** بدلًا من الفردانيّة؛ وعلى **القرب** بدلًا من المسافة المُجرَّدة للإجراءات. لقد شدّد إيمانويل ليفيناس على فكرة العلاقة هذه بوصفها أساسًا للأخلاق، وبالتالي للسياسة: فوجه الآخر يسائلنا، ويناديا، ويلزمنا[٢٥]. إنّ المسؤوليّة الحقيقيّة لا تنبت من القانون، بل من نظرة الآخر التي تكسر تمركزنا حول ذواتنا. أخيرًا، تتجذّر هذه الرؤية للسياسة في تقليدٍ متوسّطيّ لطالما نظر إلى المدينة (*polis*) نظرة أبعد من مجرّد مساحة إداريّة، بحيث رآها **واحةً للعيش المُشترَك**. وكما يشير فرانكو كاسانو، فإنّ البحر الأبيض المتوسّط هو فضاءٌ حدوديّ يلزمنا بالتفكير انطلاقًا من تعقيدات الآخر[٢٦]. بهذا المعنى، تكون السياسة المتوسّطيّة فنّ العيش معًا، وفنّ الحوار، وبناء الروابط، من دون أن تمثّل فرضًا لحلولٍ مُجرَّدة.

لا يخفى علينا أنّ واقع البحر الأبيض المتوسّط اليوم، في هذه العقود الأولى من الألفيّة الثالثة، عاد ليصبح مسرحًا لعمليّات الإرجاع القسريّ، ولصراعاتٍ تشهد مُمارَساتٍ لاإنسانيّة. كما عادت لتتجلّى عقدة «صراع الحضارات» التي تذكيها الأديان، وتتبلور فيها مصالح اقتصاديّة كبرى ومُعلَنَة، وتفرز موازين قوى جديدة. حيال هذا المشهد، قد يبدو لبعضهم أنّ الاستمرار في الحديث عن «متوسّطيّة» تعبّر عن إنسانٍ علائقيّ، وتمثّل «مكانًا لاهوتيًّا»، هو ضربٌ من السذاجة أو الانفصال عن الواقع. وعلى الرغم من ذلك، فإنّنا نستشعر، أكثر وأكثر، مسؤوليّتنا في «تعزيز الوعي والهويّة المتوسّطيّين، والدفاع عنهما، وإبرازهما»، لكي تقف عولمة النزعة الإنسانيّة العلائقيّة، القادرة على الجمع بين الوحدة والتنوّع، سدًّا منيعًا في وجه عولمة التكنوقراطيّة الاقتصاديّة. ونشاطر إدغار موران قناعته بأنّ هذا المسعى يقتضي إصلاح الفكر من بوّابة التربية، وتأسيس اتّحادٍ للمُثقّفين عابرٍ للحدود[٢٧].

---

(٢٤) راجع:

J.C. Tronto, *Moral Boundaries: A Political Argument for an Ethic of Care,* Routledge, New York-London 1993, 101-154.

(٢٥) راجع:

E. Levinas, *Totalité et Infini. Essai sur l'extériorité* (1961), Le Livre de Poche, Paris 1992, 43.

(٢٦) راجع:

F. Cassano, *Il pensiero meridiano*, Laterza, Roma-Bari 2005.

(٢٧) « C'est aujourd'hui aux intellectuels méditerranéens de prôner, défendre et illustrer la

إنّ التفكير اللاهوتيّ من منظور متوسّطيّ يعني، بالضرورة، التفكير معًا، عبر تشارك الرؤى والتطلّعات، وتلاقي وجهات النظر النابعة من مُقارَباتٍ مُختلِفة. وتقتضي ممارسة اللاهوت من المتوسّط وفي المتوسّط بحثًا عابرًا للتخصّصات يجمع بين حقولٍ معرفيّة مُتنوِّعة ضمن أفق السؤال المُتمحوِر حول الإنسان؛ كما تقتضي أن نتعلّم العمل معًا، وأن نبتكر دوراتٍ تدريبيّةً مُشترَكة. وبالنسبة إلينا، تُعَدّ مسيرة **الشبكة اللاهوتيّة المتوسّطيّة** (RTMed) – التي ننسج خيوطها معًا – جزءًا لا يتجزّأ من هذا المنهج؛ فهي خبرة شركةٍ (*comunione*) غدت بالفعل واقعًا ملموسًا من خلال العمل المشترك بين مختلف الضفاف. ومن هنا، تبرز الحاجة إلى إطلاق برامج تنشئةٍ لاهوتيّةٍ على امتداد حوض المتوسّط، لا تكتفي بتوفير فرص التبادل المعرفيّ للطلّاب والأساتذة فحسب، بل تتيح لهم الانغماس في الواقع الثقافيّ والكنسيّ لمختلف البلدان، بما يكفل إنضاج حسّ المواطنة المتوسّطيّة، والنموّ في ثقافة السلام واللقاء.

إنّ نمطًا مماثلًا في ممارسة اللاهوت يحمل بعدًا سياسيًّا ونبويًّا، ويتحوّل إلى بذرة رجاءٍ وسلام.

conscience et l'identité méditerranéennes. D'où la nécessité d'une union transnationale des intellectuels méditerranéens. En même temps, il est nécessaire de promouvoir une réforme de pensée via une réforme de l'éducation. Le mode de pensée disjonctif que nous avons reçu nous rend incapables de saisir l'unité dans la diversité comme la diversité dans l'unité » : E. Morin, *Penser la Méditerranée et méditerranéiser la pensée*, in *Confluences Méditerranée*, 28 [hiver 1998-99] 44-45

نختتم هذا النصّ بالتأكيد على أنّ المنهج لا يزال في طور التأسيس، وعلينا أن نبنيه معًا، لكي يحتضن مختلف الرؤى والمشارب، والحقيقة التي تقود مسيرة بحثنا. فخلال هذه السنوات، ومن الحوار المُتبادَل بين اللاهوتيّين واللاهوتيّات، طرحت صورٌ بيانيّةٌ (استعاراتٌ) مُتنوِّعة للتعبير عن التجربة التي تميّز الفكر المتوسّطيّ، لا سيّما في مجال البحث اللاهوتيّ:

• **حبل المرسى** (*La gomena*)، الذي لا يكفي فيه أيّ خيطٍ مُفرَدٍ لتغطية كامل طوله، بل تستمدّ قوّته من تشابك خيوطه المُتنوِّعة.

• **المساميّة** (*La porosità*) الضروريّة للحياة؛ إذ عبر المعابر والممرّات ينفذ إليها كلّ ما تحتاج إليه كي تزهر.

• **الرحلة** (*Il viaggio*)، التي لا تعبّر فقط عن التوق نحو غايةٍ ما، بل تعني أيضًا الانطلاق، وقبول المخاطرة، والاستعداد للتخلّي عن بعض الأشياء من أجل اكتشاف ما ينتظرنا من جديد.

• **الخيمة الإبراهيميّة** (*La tenda abramitica*)، أوتادها راسخةٌ في الأرض، لكنّ أرجاءها تتّسع لاحتضان كلّ زائر.

هذه الاستعارات، على تنوُّعها، ترافقنا في تطوير الرؤى والخبرات التي نسلّمها للنقاش والبحث المُتواصِل؛ نحو منهجٍ يمهّد لصناعة اللاهوت انطلاقًا من المتوسّط.